إسْماعِيل يَس

شارلى شابْلِن العَرَب

- أشهر سَـنِّيد.. مثَّـلَ ٥٠٠ فيلم بينها سبعون بطولة مطلقة
- غنى لـ«عبد الوهاب» فنال علْقةً ساخنة
- سخِر من كل شيء حتى فمه الواسع
- حقق ثروة ضخمة، ومات مُفلساً
- لاحقته لعنة الضرائب حتى قضت عليه

على الرغم من مرور سنوات طويلة على ظهور موجة أفلام «إسماعيل ياسين»، لكننا لا نزال نشاهد هذه الأفلام، ونضحك من القلب للمواقف التي تتضمنها حتى لو اتفقنا على سذاجة هذه المواقف، وبساطتها، والكثير من المبالغة التي تتضمنها. لكن الأمر المؤكد هو أن مجرد وجود اسم «إسماعيل ياسين» يعني بالنسبة لنا جميعاً متعة الابتسام، والضحك من القلب، ويكاد يكون هذا الفنان «الكوميدي» الفذ هو الفنان الوحيد الذي تتجمع كل أفراد الأسرة حول أفلامه تشاهدها، وتسعد بها، وتُطلق معها الضحكات الصافية لأنها بلا ابتذال أو خدْش للحياء.

وعلى الرُّغم من أن «إسماعيل ياسين» ظلَّ سنواتٍ طويلة مهموماً برسم الضحكات على شفاه جماهيره، لكنَّ الواقع أن حياته الخاصة كانت تشبه المآسي الإغريقية في قسوتها.

الهُروبُ منَ الجَحيم

وُلِد «إسماعيل ياسين» في أحد أحياء مدينة السويس. وعاش طفولة بائسة، حيث لم يتمكن من إكمال تعليمه خاصة بعد وفاة والدته، وبعد أن ابتُلي والدُه بإدمان «الكوكايين»، وزادت المشكلة تعقيداً بعد القبض على الأب، ودخوله السجن. حيث تدهورت أحوال الأسرة حتى وصلت إلى الفقر المدقع. وتعرض الطفل «إسماعيل ياسين» لاضطهاد زوجة الأب وسوء معاملتها له فقرَّر الهروب من البيت، وبدأ الاعتماد على نفسه. وسافر إلى القاهرة

باحثاً عن الرزق، لكنَّ المشكلة كانت في عدم وجود مأوى. فكانت المساجد هي هذا المأوى، فظل يتنقل من مسجد إلى آخر خاصة مسجد «السيدة زينب» الذي شهد أيّاماً، وليالى طويلة للطفل الهائم على وجهه، والهارب من جحيم زوجة أبيه. وخلال سعيه للعثور على فرصة عمل يسُدُّ بها رمَقَه، ويدبر من خلالها شئون حياته نجح في الوصول إلى وظيفة متواضعة في مكتب محام، مكّنته هذه الوظيفة من الحصول على قروش قليلة تكفي بالكادِ لإيجار غرفة ضيقة فوق سطح إحدى العمارات، وما يتبقى يكفي لوجبة واحدة عادة ما كانت "ساندوتش" فول أو طعمية.

مُطربٌ.. ولكنْ

وبرغم هذه الظروف الصعبة التي كان الشاب الصغير يعيشها، لكن هوايته، وحبه للفن لم يغادره أبداً. بل ظلّت أنغام «السمسمية» التي يشتهر بها أبناء السويس ترنُّ في أذنيه طوال الوقت، وكان حلمه أن يصبح مطرباً يتعاظم كل يوم ليصل إلى الشهرة، والتي تمتع بها فترات كبيرة مثل «محمد عبد الوهاب» الذي كان كثيراً لا يتوقف عن ترديد أغنياته في أية مناسبة تسمح له بذلك. وبدأ «إسماعيل» يعرف طريقه إلى «الأفراح»، والحفلات، والمناسبات في عدة أماكن حتى بدأ يشتهر في تلك الأوساط. لكن القدر كان يخبئ له حادثةً كانت محطة هامة في حياته؛ ففي هذه السن المبكرة لم يكن «إسماعيل ياسين» لديه خبرة اختيار الأغاني التي

تتفق مع المناسبات التي يغني فيها فقد دُعي يوماً للغناء في أحد الأفراح، ومن فرط إعجابه بـ«عبد الوهاب» راح يغني أغنيته «أيها الراقدون تحت التراب»؛ هذه الأغنية التي تتضمن كلماتها معانى كئيبة، وقاسية مما أغضب أهل الفرح، وأثار استياءهم منه فكانت النتيجة «علقة» ساخنة كان من تداعياتها قراره باعتزال الغناء مبكراً.

المُنولوجِستْ" المُهَرِّج

كان «إسماعيل ياسين» يتردد كثيراً على شارع «محمد علي»، وهو كما يصفونه شارع «الأرتيست» وأهل الفن، وهناك تلقفه بعض الفنانين من العازفين القدامى، وقدموا له نصيحة غالية بأن يترك الغناء، ويختار الفن الذي يتلاءم مع موهبته، وهو غناء «المنولوجات»، ومن وقتها عرف «إسماعيل» طريق النجاح. فقد لفت الأنظار إليه بشدة، وبدأ الفنانون، والعازفون الذين كان يلتقي بهم على مقهى التجاريين الأشهر بشارع «محمد علي» يستعينون به في الأفراح، والمناسبات التي يقدمها، وانتقلت شهرته من الأفراح إلى المسارح، و«الكازينوهات»، حيث استعانت به «بديعة مصابني» لتقديم فقرة في مسرحها الشهير، والواقع أن «بديعة» قد استعانت بـ«إسماعيل» كمهرج «لتستثمر نجاحه كمنولوجست لإضحاك روّادها بين فصول المسرحيات التي كانت تقدمها، لكن حدثت ذات ليلة مفارقة غريبة. عندما بلغ إعجاب الجمهور

بـ«إسماعيل ياسين» حداً لم تكن «بديعة مصابني» تتصوره، فقد طلب منه الجمهور إعادة مونولوجاته أكثر من مرة وسط تصفيق حاد، وتشجيع كبير. وهو ما أغضب «بديعة». التي لم تكن تقبل أن ينال أحد العاملين في مسرحها «سوكسيه» أكثر منها أو أن يتعدى الدور الذي رسمته له، وهو «المهرج»، وليس النجم.

لكن «نجيب الريحاني» كان له رأي آخر في «إسماعيل ياسين»، فقد أعجبه أداؤه بشدة، واستعان به لتمثيل دور في إحدى مسرحياته بعد أن غاب أحد الممثلين، وقرّر أن يمنحه الفرصة كممثل.

مع سُلطانة الطَّرَب

تواصل نجاح «إسماعيل ياسين» فالتحق بفرقة «أمين عطا الله» المسرحية، وحصل على راتب شهري ١٢ جنيها، وفي هذه الفرقة حقق «إسماعيل ياسين» نجاحاً كبيراً خاصة من خلال رحلاتها في سوريا ولبنان. حتى التقطه صاحب ملهى «اللونابارك» بسوريا للعمل لديه مقابل مرتب أربعين جنيهاً شهرياً. وهو رقم كبير جداً بمقاييس ذلك الزمان، وبعد فترة عاد «إسماعيل ياسين» إلى مصر من جديد، وكانت تسبقه إلى القاهرة النجاحات التي حققها في سوريا، مما دعا «بديعة مصابني» أن تدعوه للعمل في مسرحها مقابل ١٤ جنيهاً شهرياً بالرغم من رأيها السابق فيه بأنه مجرد "مهرج"، وفي نفس الوقت تلقى عرضاً من «منيرة المهديَّة» بمرتب

« ١٥ جنيه» فوافق على الفور ليعمل مع سلطانة الطرب «منيرة المهدية». ولتمثل هذه المرحلة خطوة جديدة في مسيرة «إسماعيل ياسين». واستطاع أن يقدم مجموعة متميزة من «المنولوجات» التي جعلت لفن المونولوج مكانة كبيرة في الوسط الفني، وأن يخلق له أنصاراً ومعجبين، ويُذكر أن كبار الملحنين قد لحنوا له من بينهم «عبد الوهاب» و«فريد الأطرش» و«محمد فوزي» و«منير مراد» و«محمود الشريف» وغيرهم، وأصبح المونولوج على يد «إسماعيل ياسين» عنصراً مهماً في العديد من الأفلام السينمائية.

أرقامٌ قياسيّة

انطلق «إسماعيل ياسين» في السينما ليحتل من خلال مجموعة أفلامه التي حمل الكثير منها اسمه مكانة رفيعة في دنيا «الكوميديا» والضحك. وليصبح «ماركة» مسجلة في عالم الضحك. وقاسماً مشتركاً في أعظم أعمال نجوم مصر والعرب، فقد بلغ رصيده من الأفلام ٥٠٠ فيلم خلال ٢٢ سنة منها سبعون فيلماً قام فيها بدور البطولة المطلقة أمام أشهر نجمات السينما آنذاك مثل «ماجدة». و«شادية». و«هند رستم». و«سميرة أحمد». و«ليلى فوزي». و«نجاح سلام». و«زهرة العلا». وغيرهن.. وكان من أبرز أفلامه ليلة الدخلة – الناصح – ليلة العيد – المليونير – البطل – الفانوس السحري – حلال عليك – المجانين في نعيم.

وبالإضافة إلى الأفلام التي لعب فيها دور البطولة فقد عُرف «إسماعيل ياسين» بأنّه أشهر سَنِّيد في السينما المصرية خاصة الأفلام التي شارك فيها مع «فريد الأطرش»، و«محمد فوزي». و«أنور وجدي»، و«كمال الشناوي»، وغيرهم. ولم تشهد السينما وحدها كل إنجازات «إسماعيل ياسين»، ولكن كان له في المسرح صولات وجولات، فقد قدم من خلال فرقته المسرحية، والتي شاركه في تقديم أعمالها ألمع نجوم مصر في ذلك الوقت أعمالاً مسرحية راقية مثلت إضافة فنية مهمة لسيرته، ومن غرائب القدر أن يكون هذا المسرح الذي عشقه نجم «الكوميديا» الأول «إسماعيل ياسين» هو سبب الأزمة التي عاش معها سنواته الأخيرة بعد أن عجلت برحيله إثر تدهور حالته الصحية، والمادية.

حَبيبى كُوكُو

كان المسرح أحد الأحلام التي استقرت في أعماق ملك الكوميديا والضحك «إسماعيل ياسين» بجنون. وكان أقرب الفنون إلى قلبه على رغم نجاحه الكبير في السينما. لكن ظلت رغبته في تكوين فرقة مسرحية تلح عليه. فقد كان يرى في المحاكاة. والتفاعل الذي يحدث بين الممثل. والجمهور أخذاً ورداً متعةً لا يمكن مقاومتها. وأن الفنان يحصل على أجره فور تقديم إبداعه دون انتظار. وهنا كان قراره بتكوين فرقة مسرحية تحمل اسمه. وتضم ألمع نجوم عصره من بينهم «تحية كاريوكا». «عبد المنعم إبراهيم».

«استيفان روستي»، «محمود المليجي»، «عبد الفتاح القصري»، «فردوس محمد»، «زهرة العُلا»، «محمد رضا». وغيرهم.

كانت مسرحية «حبيبي كوكو» هي المسرحية الأولى التي تم افتتاحها في نوفمبر ١٩٥٤ لتبدأ مرحلة جديدة في مسيرة «إسماعيل ياسين» حيث قدم إحدى وخمسين مسرحية على مدى خمس عشرة سنة، وهو رقم قياسي لم يحققه نجم قبله؛ هذا الرقم احتاج تحقيقه جهداً خارقاً، ويذكر من عاصر «إسماعيل ياسين»» في هذه الحقبة أنه على رغم خبرته، ومكانته الفنية الرفيعة فقد كان يستسلم للمخرجين، وينفذ تعليماتهم في التزام وتواضع.

ثَلاثُ زِيجَاتٍ.. وابْنٌ واحِد

بقدر ما شهدت مسيرة «إسماعيل ياسين» الفنية من نجاحات، حفلت حياته الخاصة بكثير من الإخفاقات. وتكشف الأوراق الخاصة لهذا النجم المميز أنه قد تزوج ثلاث مرات، كانت الأولى عندما دخل في حالة عناد، وتَحَدٍ مع رجل آخر؛ أمّا الثانية فكانت تعمل «مونولوجست» واستمر زواجهما شهرين فقط. وفي عام ١٩٥٤ تزوَّج للمرة الثالثة والأخيرة من أم ابنه الوحيد «ياسين»، وكانت هذه الزوجة هي الوحيدة التي أحبها «إسماعيل ياسين»، ووقع في غرامها من أول نظرة، وهي الزوجة التي يعترف في مذكراته أنها صاحبة الفضل في ترتيب أوراق حياته، وتنظيم أموره بعد أن كانت حياته تتسم بالفوضى، وأن علاقته بها ازدادت عمقاً

بعد أن أنجبا ابنهما «ياسين» الذي كان طفله المدلّل حيث تتحول طلباتــه إلى أوامر واجبة التنفيذ مهما كانت صعبة التحقيق، وكان «إسماعيل» يقيم للابن «ياســين» كلّ عام حفلاً أســطورياً احتفالاً بعيد ميلاده يشهد كل مظاهر السخاء، والبذخ.

مِجلّةُ إسماعيل ياسين

وتكشف أوراق هذا النجم الرائع أنه كان صاحب رؤية خاصة في الحيــاة، وكان لديه العديد من الهوايات من بينها إجادته العزف علــى البيانو، كما كان قارئاً نهمــاً، ولديه مكتبة زاخرة بمؤلفات كبار الكتاب، وكثيراً ما كان يقيم صالوناً ثقافياً في بيته يجتمع فيه مفكــرون وكتاب، بل كان يقيم ندوات يدعو فيها المعجبين بفنه، ويســتمع إلى آرائهم. ويجيب على تســاؤلاتهم، وتشير مذكرات «إسماعيل ياسين». وأوراقه الخاصة أنه كان يهوى العمل الصحفي، وأنه أصدر ضمن مجلة الكواكب ملحقاً باسم مجلة إسماعيل ياسين الفكاهية. ويقوم بنفســه بتحرير المقالات والتحليلات السينمائية والمسرحية، ويتحدث عن مغامراته العاطفية، وبالإضافة لكل هذه الهوايات فقد كان مهتماً بالتصوير "الفوتوجرافي".

الدّونْجُوان

وعلى الرغم من أن ســطور حزينة تســيطر على مساحة كبيرة في مسيرة نجم الكوميديا الأول «إسماعيل ياسين»، لكن هناك صفحات أخــرى كان يرويها بنفســه. ويحولها إلى ســخرية ضاحكة، فهو

لا يتورع أن يسخر حتى من نفسه خاصة « فمه الواسع» لكن أسراره. وأوراقه لا تغفل أن «سُمعة» كان «دونجواناً» كبيراً، وأن له العديد من المغامرات العاطفية. وهو شاب صغير، فقد أحب «بنت الجيران» مثل أقرانه من الشباب. وبحكم طبيعته الكوميدية فقد كانت مغامراته العاطفية كثيراً ما تتحول إلى مواقف «ضاحكة». ويحكي «إسماعيل ياسين» في أوراقه أنه قبل أن يتزوج أحب جارته الحسناء. وكانت طالبة في مدرسة «السنيَّة»، وكثيراً ما كان يقف بالساعات بجوار نافذة غرفته لمتابعة الجارة الجميلة. والتي شعرت باهتمامه بها فكانت تمطره بالنظرات الفاتنة من وقت إلى أخر. ويعترف «إسماعيل ياسين» بسذاجته عندما زاره أحد أصدقائه ذات يوم فأشار له على جارته الجميلة من النافذة. ولأن صديقه كان ضابطاً فقد أغرت بدلته «الميري» جارته الحسناء فتحوّلت إلى صديقه. وعندما اكتشف «إسماعيل ياسين» ذلك جن جنونه. وأخذ يتابع صديقه الذي اعتبره خائناً. واعتزم الانتقام منه. وعندما علم أن الحبيبين قد اتفقا على موعد غرامي بينهما قام بوضع المنوم في كوب الشاي الذي قدمه لصديقه. لكن الظروف شاءت أن يصمم صديقه الضابط أن يشرب «إسماعيل ياسين» بدلاً منه وأقسم بأغلظ الأيمان ليسقط في يده. ويشرب المقلب حتى الثمالة.

حكايتُه مع فُستانِ المُطربَة

وعلى رغم كثرة المواقف الحرجة. والمثيرة في حياة نجم الكوميديا الأول لكنه يروي أكثر المواقف المحرجة التي صادفته فيقول: عندما

كنـت أعمل «مونولوجسـت» في بداية حياتي فقـد كانت تمر عليَّ فـترات طويلة أعاني خلالها من عـدم وجود عمل، وفي أحد الأيام تعرفت على مطربة مشـهورة آنـذاك، وطلبَتْ منِّي أن أصاحبها في أحـد الأفراح التي تحييها لإلقاء بعض "المونولوجات" بعد أن تقدم هي وصلتها، وكان ذلك يمثل لي شـيئاً مهماً.. كان الفرح في مدينة «بلبيس» بالشرقية، ومع بدايته أمطرت السماء بشدة لينتهي الفرح قبل أن يبدأ، وعندما شـرع الفنانون في رحلة العودة، كان الطريق قـد بلل بمياه المطـر، وتحولت الأرض إلى بِرَكٍ مـن الطين، وراح «إسماعيـل ياسـين» في محاولة منه لاسـترضاء المغنية حتى يضمن أن يعمل معها فيما بعد: فأخذ يفسح لها الطريق. ويصيح: «وسع للفنانـة الكبيرة يا ولد انت وهو».. لكن حظه العاثر تسـبب في أن الفنانة وقعت في الطين. وغطى الوحل فسـتانها. وراحت تبكي. وهنـا أراد «إسماعيـل» أن يقدم لها ترضية جديـدة فاقترح عليها عند وصولهم المحطة أن تخلع فسـتانها في مقصورة القطار، ويقوم هو بغسـله في الحمّام. وبتجفيفه في الطريـق، وعندما يصل القطار بالقرب من محطة القاهرة يسـلمها الفستان بعد أن يكون قد جفت منه المياه فترتديه دون أية مشـاكل؛ وبالفعل استحسـنت المطربة فكرة «إسماعيل ياسـين». وسلّمته فستانها بوحله، وظلت حبيسة في المقصـورة بالملابس الداخلية. وأخذ «إسماعيل» يزيل الوحل من الفستان، وينظفه بالماء لكن الفستان لم تجف منه المياه فلم يكن هناك شمس أو هواء أو حرارة تساعده على الجفاف. ففكر «إسماعيل» أن

يقف على نافذة القطار معرضاً الفستان للهواء من الخارج، حيث أخذ في الترنح ذهاباً وعودة بينما «إسماعيل» في منتهى السعادة لقرب انتهاء المهمة، لكن الرياح لا تأتي عادة بما تشتهي السفن؛ فقد جاء من الجانب الآخر قطار سريع ليطير الفستان في الهواء، وتزداد المشكلة تعقيداً. فوقف حائراً لا يدري ماذا يفعل خاصة، وأن القطار أخذ يقترب من محطة القاهرة، والمطربة ترسل إليه كل خمس دقائق أحد أعضاء الفرقة تسأله عن الفستان، فيرد قائلاً «هانت باقي شوية وينشف»، وهو لا يدري كيف يتخلص من هذه الكارثة التي وقعت فوق رأسه. فعندما اقترب القطار من محطة القاهرة لم يجد «إسماعيل ياسين» حلاً سوى أن يقفز من شباك القطار، لكنه ولسوء حظه وقع على رأسه، فحملوه إلى المستشفى، أما المطربة فبقيت في مقصورة القطار، وأخذت تبكي حتى مرَّ من أمامها راكب يرتدي «بالطو»، فأشارت إليه، وهي تنظر من الشباك، واستحلفته أن ترتدي «البالطو». ودفعت له فيه مبلغاً كبيراً. ولبست «البالطو» وخرجت به، وذهبت إلى منزلها، ومنذ ذلك اليوم لم يقترب «إسماعيل ياسين» منها.

كارثةُ الضَّرائب

يشهد كثير من الفنانين الذين عاصروا «إسماعيل يس» أنه حقق نجاحاً طاغياً، وشهرة واسعة في العالم العربي كله، وأن بيته في ضاحية الزمالك الراقية كان ملتقى للنجوم، وأن الفنان الكبير كان كريماً إلى أبعد الحدود، وأنه حقق ثروة كبيرة تقدر بثلاثة ملايين

جنيـــه، هي ثروة ضخمة جـــداً بمقاييس ذلك الزمـــان. ولأن دوام الحال مـــن المحال فقد تبدَّلت أحوال ملك الكوميديا من قمة الثراء إلى قـــاع الفاقة، فقـــد أعطته الدنيا ظهرها من جديد، وانحســـرت عنـــه الأضواء، واضطر بعد أن كان صاحب أكبر فرقة مســـرحية في مصر إلى العمل كـ«مونولوجســـت» في الصالات في مصر والشـــام بعد أن تفككت فرقته، وكان سبب هذا الانحسار هو نفسه المسرح الذي عشقه، وأعطاه أجمل ســـنين عمره، فقد فاجأته مصلحة الضرائب بأرقام فلكية عن نشاطه، ومســـرحه. وقامت بالحجز على عمارته مقابل ديون بلغت وقتها ٢٥ ألف جنيه، ووصل به الحال أن اضطر إلى الســـفر إلى لبنان. والعمل فيه، ومن هناك أرسل إلى«عبد الحميد جودة السَّحَّار» رئيس مجلس إدارة هيئة السينما المصرية يطلب منه العمل في أي فيلم لمساعدته مادياً، فرد عليه بسرعة الحضور للتوقيع علـــى عقود عدة أفلام، لكنه عندما عاد لم يجد ســـوى الوهم. وفي عام ١٩٧١م قدَّم للتليفزيون المصري فكرة فيلم بعنوان «نصف مليون جنيـــه»، وكان هذا هو العمل الأخير في حياة «إسماعيل ياســـين»، والغريب أنه قد تم تغيير اسم الفيلم ليُصبح «وصية المرحوم».

المَشهدُ الأخِيْـــر

إن المســـيرة الحافلة بالتفاصيل، والإنجـــازات لفنان قدم الكثير للســـينما والمســـرح، ولفن «المونولوج». وصنع البسمات والضحكات على شـــفاه الجميع منذ ســـنوات طويلة وحتى اليوم؛ هذه المســـيرة لا تخلـــو في مراحلها الأخيرة من مشـــاهد حزينـــة، فلم يكن يخطر

ببـال أحد من عشـاق فن «إسماعيل ياسـين» أن ملك الكوميديا في العصر الذهبي للسينما راح يتسوّل الأدوار لكي يعيش، وفي أرشيفي الخاص، ومع عشـرات الصور التي تنطق بمسـيرة نجم الكوميديا الأول ألتقـط آخـر حديث صحفـي أجري معه قبـل وفاته بأيام. كانت كلماته تنطق بحجم المرارة التي يشعر بها، أتوقف عند جملة قالها بأسـى: «أنا لسـه ما عجزتش عشان أبطل تمثيل.. أنا عمري ٥٩ سـنة، و«موريس شـيفاليه» عمره «٨٣ سنة» ولسه بيمثل.. وفي هذا الحديث أيضاً، وبروح الفكاهة التي اشـتهر بها قال «إسماعيل ياسـين»: أنا على اسـتعداد لعمل أدوار تناسـب سنّي. وهي أدوار الأب. والعم بشرط ألا يعطوني دور والد «أمينة رزق».

وأتوقـف عند جملة قالها الراحل السـاخر ملك الكوميديا الذي لا يزال يعيش بيننا. يلتف كل أفراد الأسرة حول أفلامه. ويطلقون الضحكات الصافية والابتسامات يقول «إسماعيل ياسين» قبل وفاته بأيام لأحـد أصدقائه: ولا يهمك أنا لن أخـاف من «عزرائيل» فقد أعددت له ألف نكتة وسوف أموت – كما عشت– من الضحك!

ياسين يقلد والده

مع زوجته

فرقة ملوك الفن
تحية كاريوكا
شادية
اسماعيل يس
عبد الغني السيد
شكري سرحان